صوت الطفولة الفلسطينية في الأفلام

عبد الحكيم أبو جاموس

كيف قدمت الأفلام الفلسطينية الطفل في سنوات الإنتفاضة الثلاث؟ أو كيف ظهر الطفل في الأفلام؟ من إستعراض بعض الأفلام المنتجة في هذه الفترة، يمكن النظر بشيء من الارتياح لهذه الأفلام كونها تفسح مجالاً لرواية الطفل حتى لا تضيع روايته لنفسه وللواقع بين روايات الكبار.

حين تركت عزة الباب مفتوحاً

في فيلم عزة الحسن الذي ظهر عام ٢٠٠١م (زمن للأخبار) ثمة تواجد حقيقي للأطفال، كأنها حين تركت الباب مفتوحا في أحد المشاهد لكثرة زيارتهم لها للمواصلة، دلت على فكرة مهمة ألا وهي أن الطفل الفلسطيني لديه ما يقوله، ظهر أطفال عزة الحسن أطفالاً مبادرين محبين للتعلم والتعاون والعلاقات الإجتماعية، و حبهم لذكر رواياتهم حول واقعهم وواقع أسرهم في ظل الإنتفاضة، كما ظهر وعيهم السياسي حول تاريخ فلسطين وخصوصاً قضية اللاجئين. كما أظهرت عزة الحسن أن الحياة بلا طعم بدون وجود الأطفال، وأن لديهم وعياً حول بعض المظاهر مثل عمل الأطفال، وتميزت رواياتهم بالصدق العالي وذكر التفاصيل الصغيرة، وقد أثرت حالات القتل في فلسطين على نظراتهم الوجودية حول المستقبل حين تساءلوا هل سنظل أحياء!

نداء الحق والسلام

فيلم لفتحي عبد الرحمن، ركز على الجانب الإعلامي لفلسطين الآن على شكل خطاب إنساني فلسطيني من أطفال فلسطين إلى أطفال العالم، أظهر الفيلم حال الأطفال وتوقهم نحو الحرية والسلام، وظهرت معاناة الأطفال ? خلال الصور والمشاهد المصورة المصاحبة للنداء. وهم أطفال يبحثون عن حاجاتهم تحت الأنقاض، وأطفال يعانون، وحالات الدمار والظروف الصعبة التي يعيشها الأطفال والكبار، وأظهرت وعي الأطفال على أهمية الوصول إلى الرأي العام العالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني.

طيور ليانة بدر

منحت المخرجة ليانة بدر أطفالها فرصة ممتازة للتعبير والبوح والتحدث، مما يمكن أن تكوّن صورة عن حال هؤلاء الأطفال. ظهر الأطفال يروون ويخاطبون بوعي وجرأة عن همومهم، وخوفهم وتفاصيل حياتهم البسيطة المرتبطة بذهنية وعقل وشعور وتفكير الأطفال، فالطفل الذي يود الإختباء في خزانة مرتدياً ثياب سوداء، والطفل الذي يخاف في الأحلام، حالات لطفل يعاني من بطش الإحتلال وأثره على النفسية، ونسجت المخرجة علاقة ما بين الأطفال والطيور، في إيحاءات رمزية وجمالية لتعميق تصوير الأطفال تحت الإحتلال. أنهم أطفال يوثقون شهاداتهم حول إجتياح رام الله والإنتفاضة والحياة، وأنهم أطفال يفكرون في الحالات المختلفة للإسرائيلي، رافضين الإحتلال طالبين الحرية.

قبل البداية

في فيلمي المخرجة د. علياء أرصغلي شهادة ميلاد وولادات على الحواجز، ظهر الأطفال الأجنة والمولودون الذين أريد لهم

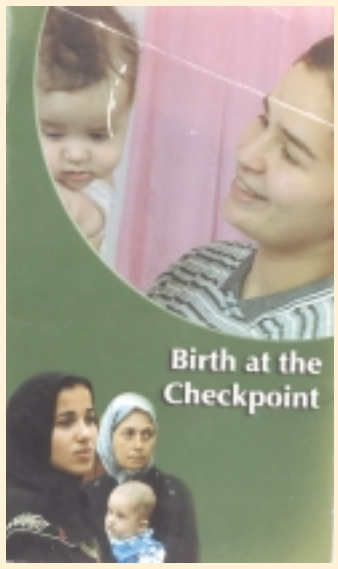

أن لا يكون لهم صوت، حيث صعوبات الوصول إلى المستشفيات العسكرية، والمشاهد سيكشف كم هو مؤلم الإحتلال. ربما لم يتكلم الأطفال، لكنهم ضحكوا، لعبوا، حبوا على الأرض، وهذا هو صوتهم الحقيقي، صوت البراءة، وهذا ما أوصلته المخرجة للرأي العام الدولي. أبرز الفيلمان أهم ، ليس فقط ضرورة أن يرى الطفل الثور بل أن يرى الشعب أيضا الحرية والإستقلال. حدث أطفال فلسطين في الأفلام هو صوت طلبة سلام وحرية وإستقلال وحياة عادية بعيدا عن الإحتلال وبشاعته.

ماذا فعل سامر عندما تقطعت به الأسباب

لم يبد الفتى صادقاً في نبرة صوته حين ادعى بأنه أخرس، طالباً من ورائها العطف والتسول، لم يظهر على ذقنه سوى بعض الشعيرات الصغيرة،، لم يكن اكمل ١٦ عاماً ..

دخل سامر أحد المحلات في قرية بدو شمال القدس، ولم يظفر بشيء، سوى بنظرة رثاء وشفقة من صاحب المحل الذي دعا له ولم يمنحه شيئاً، لكنه لم يكتشف الفتى..

لقد دفعت ظروف الانتفاضة في سنتها الأخيرة الشباب إلى ادعاء وتمثيل بعض الأدوار، فالأعمى الذي يرجو بتثمين العمي المرور على الحواجز الاحتلالية، أو الأخرس الذي يتكرر ظهوره أما كاتب السطور عند حاجز قلنديا العسكري والذي ينطلق لسنه بعد تعرضه للضرب على أيدي جنود الاحتلال ناهيك عن السخرية التي تكون --- للجنود وأصحابهم لأسابيع تمر.

قلت لسامر وهو يجيب علي بـ أه، أه، آ .. قل لي يا سامر، انت من يتما أم انك يتيم؟

وتابعت أسئلتي حتى حللت عقدة (كان يمثلها) من لسانه، وراح يحدثني عن عائلته الكبيرة، ووالده المتزوج من اثنتين، وأنه قدم من يتما (نابلس) كي يعمل ولم يجد عملاً، فحال جمع بعض الفلوس عن طريق التسول بادعاء الخرس، لم يكمل سامر المدرسة، ولم يجد عملاً، وكان لابد من بعض المال، فماذا يمكن أن يفعل ؟

يبتسم سامر بسخرية، ومرارة، يأخذ بنصيحتي ويتوجه إلى المحلات ليعرض عليها العمل لأيام قليلة على الأقل، يمضي سامر، ويرمقني بابتسامة حقيقية، فعلى الأقل ليحس وينعم بشيء من السرور حتى ولو كان قليلاً .

اتفحص الوجه الأبيض المستدير، ذا العينين الواسعتين المكحلتين، البريئتين، بعد قليل يسألني صاحب المحل مع من كنت اتحدث؟ فاجيبه مع الأخرس !

- الذي كان عندي
- نعم
- يا رجل الأخرس يتكلم .. ؟
- سبحان من أنطقه
- قول وغير

- ياسيدي الاخرس في بلادنا ينطق، وكل ناس وأخرسهم .. لم أدر هل ابتسم؟ أم أخفي دمعة تترقرق في العين، وددت اللحاق به، وفعل أي شي من أجله، لكن في هذه الحالة ستتغير مهنتي من عالم الصحافة إلى الشؤون الاجتماعية .

لقد دفع سامر حوالي ٥٠ شيكلاً مقابل أجرة الطريق، وهو الان غير قادر على جمع أجرة العودة إلى بلدة يتما في محافظة نابلس. ياليته ظل في يتما .. فماذا سوف يفعل وقد أصبح عاجزاً عن العمل والعودة غير ادعاء الخرس ؟ ربماالصمت أعمق من الكلام.

تنمية ع البساطة

المدهش والاكثر ادهاشا في طفولتنا

بقلم وداد البرغوثي

دار نقاش في احدى الاجتماعات في احدى المؤسسات التي تعمل من اجل الطفل والطفولة حول أطفال القرى والمخيمات، هل يستفيدون من نشاطات هذه المؤسسات أم لا؟ دافع من دافع عن فكرة ان المؤسسات تهمل أطفال الريف والمخيم، ونفى من نفى؟ وكنت في ذلك الاجتماع الذي شاركت فيه نيابة عن احدى المؤسسات الاهلية صاحبة فكرة وانتقاد المؤسسات على تهميش هذه الفئات، وهب اكثرمن مدافع عن الفكرة ليتهموني بالموقف المسبق.

ربما كان لدي موقف من ذلك سبق الاجتماع، سكت للحظات على مضض وكنت في قرارة نفسي اشعر بالضيق، حيث ينظر الي البعض باعتباري طيرا يحب دائما التغريد خارج السرب. وفي نهاية الاجتماع تم تحديد موعد لبدء برنامج «ورشات عمل» يحضرها الاطفال وكان اجماع غالبية الحضور على أن يكون النصف الثاني من شهر تشرين أول هو الموعد المقترح. لم اتمالك نفسي واحافظ على صمتي الذي أحس بالخجل منه في قرارة نفسي فقلت للمجتمعين: وهل تريدون دليلا اكبر من هذا الموعد؟ يؤكد على تهميشكم لاطفال الريف؟ ألا تعلمون أن هذا الموعد عز موسم الزيتون الذي يشارك فيه أطفال القرى مثلهم مثل اهلهم؟. فوجئ المجتمعون وكأنه قبض عليهم متلبسون بالجرم وكان بينهم بعض الفلاحين الذين انسلخوا عن قراهم وارتبطت حياتهم بالمدينة. وقال احدهم: فعلا انت فلاحة اصيلة، فرغم انني فلاح إلا أنني لم انتبه. ومع ذلك لم يغيروا الموعد، لأن المؤسسة الفلانية بنت الفلانية التي تصرف على المشروع تريد تقريرها في الوقت المحدد، لا نستطيع التأخير. وأن اهل الدول الاوروبية والاسكندنافية يحبون الالتزام بالمواعيد ولا نريد ان يأخذوا فكرة عن الفلسطينيين انهم غير ملتزمين، وهكذا اقر الموعد حفاظا على سمعة الوطن» كما جاء في مسرحية «كاسك ياوطن».

خرجت من الاجتماع وأنا أفكر في الفارق الكبير بين شخص عاش طفولة بين القهر والفقر والحرمان، ولا يريد أن تعيشه الأجيال المقاومة، وبين آخر لم يعش ذلك أو ربما عاشه وتناساه، ولا يهمه إلا أنه هو نفسه قد انتقل من ذلك الواقع إلى واقع آخر. وكوني أدعي أنني أنتمي للفئة الأولى، فما زالت قصص الطفولة المقهورة حية في ذاكرتي. إحدى هذه القصص أن إحدى قريباتنا سافرت إلى الكويت في زيارة لأبنائها، ولما كنا من قرية محرومة بكاملها من الماء والكهرباء والمدارس وكل شيء فقد كان كل ما هو خارج حدود معرفتنا وواقعنا غريبا ومستهجنا، فلما عادت المرأة المذكورة فقد أخبرتنا أن أسرة ابنها تضع الدجاجة في الثلاجة، وتبقى لمدة ١٥ يوما دون أن يصيبها التلف. لم تصدق أن هناك جهازا يمنع تلف الدجاجة لمدة ١٥ يوماً ، كان ذلك مدهشاً وفوق قدرتنا كالأطفال على التخيل، لكن أدهشنا أكثر هو كيف يستطيعون أن يتركوا الدجاجة طيلة هذه المدة دون أن يأكلوها. ذلك أن الدجاج كان نادرا جدا، فإن وجدت دجاجة فيجب الحفاظ عليها من أجل البيض والتفريخ، لذلك كان أكل الدجاج حلما قد نحلم به أسبوعين كاملين أو شهراً كاملا دون أن يتحقق هذا الحلم. وإن كان ذلك قد وقع في الستينيات، فقد كانت الغالبية الساحقة تعيش مثل هذا الظرف، أما أن نتخيل أن هذا موجود ونحن نقترب من منتصف العقد الأول من القرن الواحد والعشرين فتلك سخرية. فهل يطلب من هؤلاء الأطفال أن يفهموا قيمة المواعيد «المقدسة» للأوروبيين والإسكندنافيين؟ من يجيب على هذا السؤال؟

للمراسلة

نهتم كثيراً بآرائكم

شاركونا ملاحظاتكم ومقالاتكم على عنواننا التالي:
برنامج دراسات التنمية - جامعة بير زيت - ص.ب ١٨٧٨ رام الله
تلفون: ٢٩٥٩٢٥٠ - ٢ (٩٧٢) فاكس: ٢٩٥٨١١٧-٢(٩٧٢)
البريد الإلكتروني: dsp@birzeit.edu الصفحة الإلكترونية: http:\\home.birzeit.edu/dsp

للمراسلة

البيدر
رئيس التحرير: د. نادر سعيد
سكرتير التحرير: جبريل حجة
بدعم مالي من المعهد الجمهوري الدولي
WITH SUPPORT FROM THE INTERNATIONAL REPUBLICAN INSTITUTE.